القيمةُ الوثائقيةُ للشعر الأندلسي وفاعليتُها في عصر بني الأحمر (٦٣٥ـ٨٩٧هـ)
دراسةٌ موازنةٌ

أ.م.د. بشّار خلف عبود سعيد
جامعة الأنبار، كلية الآداب ، قسم اللغة العربية

ملخص البحث

تهدفُ هذه الدراسة إلى تَلَمُّسِ القيمة الوثائقية للشعر الأندلسي وفاعليتها في عصر بني الأحمر، وتبيانِ الأهمية الحقيقية للمادة الشعرية التي رَصَدَتْ _ على هيأة وثائقَ ومستنداتٍ _ أحداثًا ووقائعَ وغزواتٍ لم تُشِرْ إليها كتبُ التأريخ . الأمر الذي حَداَها لأنْ تكونَ رافدًا من روافد التوثيق التاريخي، وقسيمًا مشتركًا معه ومُتَمِّمًا لما غاب عنه من توثيق. وقد استقامتْ هذه الدراسةُ على ثلاثةِ مباحثَ : آثرتُ في المبحث الأول أنْ يأخذَ طابعًا أكثرَ عُمقًا من خلال الموازنة بين القيمتين الوثائقيتين الشعرية والتأريخية ، واتجهتُ في المبحث الثاني إلى دراسة القيمة الوثائقية للبُعديْن السياسي والعسكري . أما المبحثُ الثالثُ فقد خَصَّصْتُهُ للحديث عن البُعديْن الاجتماعي والمعماري . ثم أعقبتُ هذه المباحثَ بخاتمة تجسدتْ فيها أبرزُ ما توصَّلتْ إليها هذه الدراسةُ من نتائجَ وقناعاتٍ .

الكلمات المفتاحية : فاعلية، القيمة، الوثائقية، الشعر، الأندلسي

The Documentary Value of Andalusian Poetry and its Effectiveness in the Era of Beni al-Ahmar
A Comparative Study

Assist Prof Dr. Bashar Khalaf Abboud Saeed
Anbar University, College of Arts, Department of Arabic Language

Abstract

This study aims to investigate the documentary value of Andalusian poetry and its effectiveness in the era of Beni al-Ahmar, and to demonstrate the true importance of the poetic material that was observed - in the form of documents and files - events, facts, and invasions not referred to by history books. This led it to be one of the tributaries of historical documentation, a common division of it, and complementary to what was missing from it in the documentation. This study was based on three topics: I preferred in the first section to take a more in-depth character through a comparison between the poetic and historical documentary values. In the second section, I turned to study the documentary value of the political and military dimensions. As for the third topic, I devoted it to social and architectural dimensions. Then I followed these investigations with a conclusion that embodied the most prominent findings and convictions of this study.

Keywords: effectiveness, value, documentary, poetry, Andalusian

المقدمة

الحمدُ لله ربّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيّدنا محمدٍ سيّد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإنَّ وظيفةَ الأدب وأثره في المجتمع ودوره وتوثيقه للأحداث كان وما يزال محورًا لكثيرٍ من الدراسات، وما تزال آفاقه رحبة، ومجالاته واسعة، وأبوابه مشرعة لكل ما من شأنه أنْ يحددَ أو يسهمَ في تحديد هُوية هذا الأدب والارتقاء به نحو تحقيق أهدافه.

ولئن كانت وظيفةُ الأدب تتمثل بأنَّ الأديبَ أوالشاعرَ ((يُحَرِّك في رفاقه الرغبة لتحقيق ما يمكن تحقيقه .. أي رفع الواقع إلى مثالية.. تكمن في جَرِّ الشعور من العالم الثابت إلى عالم الخيال، وهذا العالمُ بالطبع غيرُ منفصلٍ عن العالم الواقعي، بل هو العالم الحقيقي بعد أنْ جرّدناه من صفات العفوية، فالشاعر يملك بدرجة عالية قابليةً يغوص بها تحت السطح، ويتقبل الناس بلهفة هذه الصور؛ لأنها تعبر عن مشاعرهم التي لا يستطيعون التعبير عنها))[1]، أو قُلْ كما قال الناقد (كرومبي): ((ليس التعبير عن فكرةٍ في الأدب من أجل الفكرة نفسها؛ بل لأجل إيصال التجارب، وليس الغرضُ من تأليف الأدب وإنشائه أنْ يكون جميلاً، وإنما نقضي له بالجمال إذا نجح في غرضه الذي يرمي إليه، والشعرُ ضربٌ من ضروب النشاط البشري الأخرى، إذ لا بُدَّ للشعر من وظيفة، والعبارة المشهورة الفن لأجل الفن قد يُرادُ بها أنَّ الفنَّ شيء يستحيل تقديره إذا حكمنا عليه بأمور خارجة عن طبيعة الفن، أما الذين يريدون أنْ ليس للفن وظيفةٌ يؤديها في الحياة، فتصبح العبارة بهذا المعنى الشائع باطلة كل البطلان))[2]، أقولُ إنْ كان ما تقدَّم ذكرُهُ يمثلُ الوظيفةَ الحقيقيةَ للشعر، فقد جاء بحثي الموسوم (القيمة الوثائقية للشعر الأندلسي وفاعليتها في عصر بني الأحمر) ليسهمَ في بعث النص الشعري الأندلسي من رَقْدَته بعد أنْ كان – في كثير من أحيانه – ظلاً تابعًا للدراسات التاريخية، ويوثق الأحداثَ التاريخيةَ في الأندلس،

---

(١) الماركسية والشعر: طومسون، ترجمة: القشيني، بغداد، ١٩٥٩: ١٩.

(٢) قواعد النقد الأدبي: كرومبي، ترجمة: محمد عوض محمد، القاهرة، ط٣، ١٩٥٤ :٣٧ .

وليتسلَّلَ إلى التاريخ ويستنطقه استنطاقًا أدبيًا يحيل النصَّ التاريخيَّ بموجبه إلى جُذوره التاريخ – أدبية.

ولأنَّ النصَّ التاريخيَّ نصٌّ يكتبه مؤرخٌ يوثق عن طريقة أحداثًا وقعتْ في زمانٍ ومكانٍ ما، فلا ((فرق بين التاريخ /الواقع، والتاريخ /الأخبار، وهذا يعني أنَّ التاريخَ لا ينفصل عن الإنسان الذي نسميه المؤرخ))[١].

وقد ذهب التاريخيون الجدد ومفكرو ما بعد الحداثة إلى أبعد من ذلك، فقرروا أنَّ التاريخَ لا يستقيم إلا من خلال السرد المحض، فالتاريخُ بحسب تصورهم ((يدركُ أو يتشكَّلُ بوصفه حكايةً تتألف من أحداثٍ ووقائعَ وشخصياتٍ، وهذه الحكايةُ أو هذا الشكلُ السرديُّ ليس موجودًا في الأحداث الواقعية، بل على المؤرخ أنْ يبتكرَ هذه الحكايةَ، أو أنْ يستخرجَ حكايةً ما من كومة الأحداث المتنافرة أو غير المترابطة))[٢].

وعلى الرغم من رأيٍ كهذا تتضح مبالغتُه في ما بين السطور، إلا أنَّ ابتكارَ حكايةٍ ما أو استخراجها وتعدد روايتها أدَّى بها إلى ((أدبية النصِّ التاريخي هذه، فهو من حيث أراد أنْ يعطيَ المتلقي كلَّ ما قيل، أو دار حول الواقعة، شَتَّتها في نصوصٍ متوازيةٍ، وكأننا نقفُ على غيابٍ شبهِ كلي للتاريخ، وحضورٍ كاملٍ للنص بما هو نسيجٌ متعالٍ على الواقعة ذاتها))[٣].

ولعلَّ هذا الحضورَ الشعريَّ وتوثيقَه للأحداث كان قد تعزَّزَ من الشاعر الأندلسي بما وثَّقه وأظهره من قيمٍ جماليةٍ، وبما سطّرهُ من وثائقَ شعريةٍ لا تقلُّ أهميةً عن الوثائق التاريخية، وإنْ كان هناك ثمة اختلاف بين الشاعر و المؤرخ فإنه يكمن

---

(١) مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥: ٣٣.

(٢) تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: د. نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وزارة الثقافة والإعلام البحرينية، ط١، ٢٠٠٤: ٥٣-٥٤.

(٣) بناء الحكاية التاريخية (تاريخ الطبري أنموذجًا): سعيد عبد الهادي المرهج، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٧: ٣ (المقدمة).

في أدواتِ كلٍ منهما في رصدهما للأحداث، فالمؤرخ يسعى ـ من خلال أداة العقل ـ إلى التحليل والتعليل والتفسير، ثم يصل إلى النتائج تحت عنوان الخطوط العريضة والنظرة الشمولية. في حين يعتمدُ الشاعر على أدوات القلب والوجدان، ويتعمقُ في الجزئيات، فيعكس ما في داخله من أبعادٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ، وهو وإنْ اختلف مع المؤرخ في أدواته فإنه يكمل عمَلَه مسجلاً أشياءَ في أشعاره غَفَلَ عنها المؤرخُ، فتكون بذلك أغنى الوثائق التاريخية بأشياءَ لم تُذكرْ فيها [1].

ولا تنحصرُ أهميتُها في كونها نتجتْ في مدةٍ من الزمن فكان لها حضورٌ وأثرٌ في توثيق الوقائع في المجتمع الذي نشأت فيه فحسب، وإنما تعدَّتهْا إلى أنْ كانت هذه الوثيقةُ الشعريةُ وما زالت ذاتَ أثرٍ فينا، نحن الذين تفصلنا عن منتجيها قرونٌ طويلةٌ وأبعادٌ زمانيةٌ ومكانيةٌ شاسعةٌ، ومن ثمَّ فإنَّ هذا الأثرَّ الشعريَّ والإحساسَ بقيمته ما هو إلا نتيجةٌ حتميةٌ للقيمة الشعرية، وما كانت هذه القيمةُ لتحدثَ لولا إبداع الشاعر المتمثل بتعبيره وتصويره للأحداث من جهةٍ، وإدراكه لحجم هذا الإبداع التوثيقي من جهة أخرى.

وتكمن أهميتُها أيضًا في أنَّها أَرّخَتْ لأبعادٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ واجتماعيةٍ وحضاريةٍ وعمرانيةٍ إلى الحدّ الذي جَعَلَ من هذه الوثيقة الأدبية رديفًا للتاريخ وقسيمًا مشتركًا معه، ومتممًا لما غابَ عنه من توثيقٍ ولا سيما في عصر بني الأحمر (٦٣٥-٨٩٧هـ) الذي اخترتُه عينّةً لهذه الدراسة، ولعلَّ تحديدي لهذا العصر دون غيره من العصور التي سبقته لم يأتِ من فراغٍ البَتَّةَ، وإنما لسببين هما:

أولاً: رؤيةُ المناخِ السياسي المضطرب الذي شهده الواقعُ الأندلسيُّ، أو قُلْ ما شَهدَتْهُ الرقعةُ الجغرافيةُ الضيقةُ المتمثلةُ بحدود مملكة غرناطة من حصارٍ لها امتدَّ لمدة قرنين ونصفٍ تقريبًا، وتفككٍ وتَصَدُّعٍ في جدران هذا النظام السياسي وتقويضٍ لأركانه.

---

(١) ينظر: صدى سقوط غرناطة في الشعر الأندلسي: جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية، العدد٧، ١٩٩٢.

ثانيًا: رَصْدُ الأحداث التاريخية المتسارعة التي أَلْقَتْ بظلالها على المخيلة التأليفية بمنهجٍ علميٍ تحليليٍ متوازنٍ، ولّما لم يَعُدْ بإمكان المؤرخين التأليف وتوثيق مدوناتهم التي تتطلب منهم وقتًا طويلاً، فقد عَمَدَ الشعراءُ الذين واكبوا هذه الأحداثَ إلى تسجيلها وتوثيقها بلمحةٍ عابرةٍ وخطرةٍ موجزةٍ امتدَّ أثرُها إلى يومنا هذا.

ولعلَّ مناطَ إبداعِ الشاعر الأندلسي في توثيقه لهذه الأحداث كان قد تأتّى من خلال توظيفه للدلالات الموروثة الغائبة ((ليحملها دلالاتٍ معاصرةٍ تتيح لها مجاوزة زمنيتها وإقامة تواصل نفسي بين حالتي الغياب والحضور، ويؤدي ذلك بالضرورة إلى تكثيف المعطى الفني والتعبير بدقة لغوية مركزة عمَّا كان الشاعرُ مضطرًا إلى شرحه والإسهاب فيه))[1]. وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام وهي أنَّ الشعرَ بقدر ما فيه من إثراءٍ للأحداث وتعزيزٍ وتوثيقٍ إلا أنَّه لا يرتقي لأنْ يكونَ مظنةَ تفصيلٍ للحوادث التاريخية وشتَّان بين أنْ يكون كذلك، وأنْ يكون رافدًا من روافد التوثيق للمدونات التاريخية، وحسبه كذلك.

ولمعرفة أبعادِ هذا الموضوع فقد استقامتْ خطةُ هذه الدراسة على ثلاثةِ مباحثَ، آثرتُ في المبحث الأول أنْ يأخذَ طابعًا أكثرَ عُمقاً من خلال الموازنة بين القيمتين الوثائقيتين الشعرية والتاريخية، إذ اتكأتُ على نماذجَ شعريةٍ وتنظيراتٍ تأريخية بَيَّنَتْ القيمةَ الحقيقيةَ للشعر الأندلسي، وصَحَّحَتْ مسارَ الشهادات التاريخية ما أمكنها ذلك، وتطرقتُ في المبحث الثاني إلى دراسة القيمة الوثائقية للبُعدين السياسي والعسكري، وتبيان ما غَفَلَ عن توثيقه التاريخ، مع ملاحظةِ أنَّ النصَّ الشعريَّ في المبحثين الأول والثاني وإنْ تداخلا واندرجا ضمن البابين السياسي والعسكري، إلا أنَّ مبلغَ الاختلاف بينهما (أعني بين المبحثين الأول والثاني) هو أنني في المبحث الأول حرصتُ على إيجاد شهادتين للحدث الواحد: تاريخية وأدبية، وعقدتُ من خلالهما موازنةً وثائقيةً، أما المبحث الثاني فلم يعتمدْ هذه الموازنةَ بقدر

---

(١) لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي الحديث: د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥: ٢٦٠.

اعتماده على تشخيص النصوص الشعرية التي رصدتْ الأحداثَ التاريخيةَ في ظلِّ غيابٍ تامٍ أو شبهِ تامٍ للشهادة التاريخية.

أما المبحث الثالث فقد خُصَّ بدراسة البُعدين الاجتماعي والعُمراني وما رصده الشعرُ الأندلسي ووثَّقه من قيمٍ جماليةٍ ومظاهرَ عمرانيةٍ واجتماعيةٍ. وأعقبتُ هذه المباحثَ الثلاثةَ بخاتمةٍ تجسدتْ فيها أبرز ما توصلتُ إليه من قناعاتٍ ونتائجَ. وحسبي بعد ذلك أنني اجتهدتُ، فإنْ وفُقتُ فلله الحمدُ على توفيقه، وإنْ كان غيرَ ذلك فأحسبُ أنها محاولةٌ واجتهادٌ ليس غير.

المبحث الأول

الموازنة بين القيمتين الوثائقيتين الشعرية والتاريخية

لا شك أنَّ هناك تفاوتًا من شخص لآخر حول ماهية الشعر وطبيعته وحقيقة العَلاقة بينه من حيث هو مؤثرٌ ومنتجٌ ومؤرخٌ، وبين النفس الإنسانية من حيث هي متأثرة، فالناقدُ ينظر إلى النصِّ الشعري بوصفه قيمةً جماليةً، والمؤرخُ ينظر إليه بوصفه قيمةً وثائقيةً.

واستنادًا إلى هذا التفاوت الحاصل فإنَّ ثمة أسئلة تعترضنا لابُدَّ من الوقوف عندها حتى ننفذَ من خلالها إلى ما يمكن لنا رصدُه من النصوص الشعرية ذوات المنحى الوثائقي، وأهمها: إذا كُنَّا مؤمنين بالقيمة الوثائقية لهذا الشعر، فإلى أَيِّ مدىً يمكن الاعتمادُ عليه في إنتاج المادة التاريخية ؟ وما الفرق بين الشاعر والمؤرخ. وبين النصِّ الشعري والنصِّ التاريخي من حيث كونهما مصدريْن من مصادر التاريخ؟

للإجابة عن السؤال الأول نجد أنَّ بعضَ المتخصصين في مجال البحث التاريخي ينكر أنْ يكونَ الشعرُ وثيقةً يمكن اعتمادها في إنتاج المادة التاريخية، يقول الدكتور حسن عثمان في كتابه (منهج البحث التاريخي): ((... وكلما كان التعبير من الوجهة الفنية وَجَبَ على الباحث أنْ يأخذَ الحذرَ، ويتشكك في صحة المعلومات الواردة، ويعد هذا النوع من الكتابة خطرًا أيضًا ؛ لأنَّ وفرةَ التفاصيل الواردة في ثناياه ربما تخدعُ القارئَ وتعطي صورةَ الصدق.. ولكنها ليست الصدق نفسه))[1].

ويشكك مؤرخٌ آخرُ فيقول:((يجب أنْ تَعُدَّ القولَ أدنى إلى الارتياب كلما كان أكثرَ تشويقًا من الناحية الفنية))[2]، في حين نجد رأيًا آخرَ يقول: ((لا يصحُّ أنْ

---

(١) منهج البحث التاريخي: د. حسن عثمان، دار المعارف، القاهرة، ط٨، (د.ت) : ١٣٠ .

(٢) النقد التاريخي، يشمل المدخل إلى الدراسات التاريخية، نقد النص، التاريخ العام: انجلو أوسينويوس، بول ماكس، أمانويل كنت، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٤، ١٩٨١: ١٤٥.

يكونَ الشعرُ وثيقةَ حياةٍ، ولا أنْ تكونَ وقائعُ الحياة مرجعًا لرصْد أبعاده))[١]، معللاً ذلك بأنَّ الشعرَ قد يُعَبِّرُ ((عن الوجه المناقض للعَلاقة بين الشاعر والأشياء لإشباع حاجةٍ نفسيةٍ دفينةٍ))[٢].

وبمقابل هذه الآراء ظهرتْ دَعَواتٌ أخرى شَدَّدَتْ على أنَّ الشعرَ مصدرٌ مهمٌ في توثيق التاريخ، فلو عَمَّمْنا الحديث وأدخلنا الشعرَ ضمن الدائرة الأكبر (دائرة الفن) لوجدنا أنَّ ((ثمةَ عَلاقةٍ جدليةٍ بين الفن والتاريخ، فالفنُ مصدرٌ مهمٌ من مصادر المعرفة التاريخية، كما أنَّ التاريخَ بأحداثه وظواهره وشخوصه وأبطاله منبعٌ للوحي والإلهام في الفن))[٣]، ولهذا نجد أنَّ ((باستطاعة الأديب أو الشاعر أنْ يتخيَّر من التاريخ ما شاء من تجاربَ يحيلها أدبًا))[٤]، بل نجد من الكُتَّاب مَنْ جَعَلَ الشعرَ((أجلى صورة وأدخلَ في الحقيقة من التاريخ))[٥] مستندًا إلى مقولة أرسطو في كون ((الشعر.. أسمى مرتبة من التاريخ))[٦]، ونختم هذه الآراء بما قاله الدكتور محمد مفتاح ما نصُّهُ: ((لا نُكران أنَّ الشعرَ مصدرٌ من مصادر التاريخ، وإنْ كان أحيانًا يتسم بالمبالغة، فإنها لا تزيل عنه الدلالة التاريخية))[٧].

وعلى هدىً من هذه الآراء نجدُ أنَّ النصوصَ الشعريةَ الغرناطيةَ كانت قد طُبعت بطابع وثائقي، واصطَبَغَتْ بصبغةٍ تاريخيةٍ لا يفتُر مسارُها، لا سيما تلك التي

---

(١) الرؤية الداخلية للنص الشعري، محاولة في تأصيل منهج: د.أنس داود، مكتبة عين شمس، ١٩٧٥: ٩.

(٢) المصدر نفسه: ٩.

(٣) الشعر والتاريخ: د. قاسم عبده قاسم، مجلة فصول، العدد ٢، المجلد ٣، ١٩٨٣: ٢٣٥.

(٤) الأدب ومذاهبه: د. محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٨: ١٣.

(٥) مع المتنبي في شعره الحربي: د. هادي نهر، مطبعة الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٧٩: ٢٩٧.

(٦) فن الشعر: أرسطو طاليس، تحقيق: شكري عياد و دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧: ٦٤.

(٧) ديوان لسان الدين بن الخطيب، صنعه وحققه وقدّمه: د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩: ٥٣.

تتصل ((بالنزعة الزمانية، ذلك أنها تقوى بقدر توغل النص في القدم، وتفردّه في الشهادة على ما هو مقولٌ فيه، وتضعُفُ بقدر حداثة النصِّ ووجوده إلى جانب نصوصٍ أخرى يطرق معها موضوعًا مشتركًا))[١].

أما الفرق بين الشاعر والمؤرخ فعلى الرغم من أنهما ينطلقان معًا من الواقع إلا أنَّ ثمة فوارق بينهما تكمن في أنَّ الشاعرَ لا ينظر إلى هذا الواقع إلا من خلال ذاته، إذ تمنحه هذه الذاتُ قدرًا من الزَّهو أو القَتامة بحسب ما تنتابها من ظروف، في حين يحرص المؤرخُ على إزالة ما بينه وبين الحدث من شحناتٍ عاطفيةٍ وظروفٍ دينيةٍ وعرقيةٍ [٢]، ولكن مهما يكن من أمر فإننا لا نعدمُ القيمةَ التوثيقيةَ في النصِّ الشعري، كما لا يخلو النصُّ التاريخيُّ من قيمةٍ جماليةٍ [٣].

وعلى وجه التقريب فقد شَخَّصْتُ نماذجَ شعريةً معينةً ألتمسُ منها توثيقًا لمرحلة زمنية غاية في الأهمية، وهي أشبه ما تكون حقائقَ ثبّتها الشاعرُ في ديوانه، وشهاداتٍ حيّةً دالةً على عصره، وقد حرصتُ على أنْ أُقابلَ كلَّ نصّ من هذه النصوص بإشارات تاريخية لا تقلُّ أهميةً عن الإشارات الشعرية. على ألاّ يُفهم من هذا أنني حريصٌ على أنْ أقدِّمَ الوثيقةَ الشعريةَ على الوثيقة التاريخية بقدر ما هو حرصٌ على أنْ تستوفيَ المادةُ الأدبيةُ حقَّها، وتأخذَ مكانها والاعتراف بها كرافدٍ من روافد الرواية التوثيقية .

فمن الدلائل على فاعلية الوثيقة الأدبية وأهميتها في التاريخ ما نجده حاضرًا وبقوة في ديوان أبي الحسن ابن الجيّاب (ت٧٤٩هـ)، إذ إنه – وفي معرض إنصافه لأبي عبد الله محمد بن الغالب بالله، سادس ملوك الدولة النصرية – وثَّقَ لنا أعمالَه الحربيةَ ومشاركاته في بعض الحروب وتحريك الجيوش بقوله:

---

(١) بحوث في النص الأدبي: د. محمد هادي الطرابلسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٨ : ٨٠ .

(٢) ينظر: مجلة كلية الآداب بتطوان، جامعة محمد بن عبد الله، عدد خاص بندوة أبن الخطيب، السنة الثانية، العدد ٢، مطبعة النجاح، الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٧: ٢٩٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩٤.

مارَسَ الحربَ فهو جدٌّ خبير بقِراع العدى ونَصْب الحبائلْ
كلّ يوم تبدو جيوشك في آ فاقهم طالعًا على إثر نازلْ

وقوله في بعض غزواته:

قُلْ لأهل الصَّليب خابت مساعيـ ـهم، وهُدَّت أصنامهم والهياكلْ
دَهَمَتْهم دُهم الجياد بأرض لم تُرَعْ قطُّ من عدو مخاتلْ(1)

إنَّ هذه الشهادةَ التاريخيةَ جاءت على غير ما ذكرته المصادرُ التاريخيةُ، فكتابُ (نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان) وهو أكثرها تفصيلاً يورد تجديدَ الهُدْنة في عهده من دون أدنى إشارة إلى غزواته وحروبه، مكتفيًا بإشارة إلى خلافٍ جرى بينه وبين قادة عسكريين من بين مَرين في المغرب سُمُّوا بمشيخة الغزاة(2).

ومن الشهادات الأدبية الأخرى التي سجَّلتْ حضورًا موازيًا لنظيراتها التاريخية ما تَمَّ توثيقُه من ابن الجيَّاب حول تاريخ موقعه (مرج غرناطة) التي دارت بين المسلمين والنصارى، زيادة على توثيقٍ لمعلوماتٍ جديدةٍ توضح أهميةَ هذا الحدث، وتعزز نتائجَه الايجابيةَ، وأهمها: تخفيف الضغط والتضييق والشروط التي فرضها النصارى بعد استيلائهم على أهم الحصون وجبل طارق أو بما يسمى بـ(جبل الفتح) الذي باشره طارقُ بنُ زيادٍ أول دخوله الأندلس، فعلى الرغم من عدم الإشارة إلى تاريخ الموقعة في النص الشعري، إلا أنَّ ابنَ الجيَّاب وثَّقه في ديوانه بقوله: ((... وقال يمدح أبا الوليد... بمحلة النصارى بأسفل مرج الحَضْرة واستيلائه عليها، وموت (الأفنت بِطرُهُ) ولد الطاغية (جانَجهْ) ملك قشتالة وعمّه (الأفنت جوان) وهزيمةِ أتباعهما، وكانت الهزيمةُ في سادس جمادى الأولى عام تسعة عشر وسبعمائة))(3).

---

(1) ديوان ابن الجيَّاب الغرناطي، تحقيق : فوزي عيسى، مكتبة الآداب، القاهرة ، ٢٠١٦: ١٧٠.

(2) قادة عسكريون من بين مرين في المغرب .

(3) ديوان ابن الجياب: ٢٣٨.

وقد استتبع هذا التحديد التاريخي معلومات جديدة عن المعركة ساقها ابنُ الجيَّاب في نتاجه الشعري، كتوثيقه لأهمِّ النتائج الملموسة وسروره بها:

فلكل عقل منه دهشة مُعْجَبٍ طربُ السرورِ وهَزّة النشوانِ
ولكل نطقٍ عنه وقفةُ مُعْجمٍ ولو استمدَّ بيانَ كّلِ لسانِ[١]

على أَنَّ نظرةً في المصادر التاريخية تنبئنا أنَّ هناك اختلافًا وتباينًا ملحوظًا مع الرواية الأدبية في تحديد سنة الموقعة، بل إن التباينَ هذا كان قد رافَقَ المصادرَ التاريخيةَ نفسها بعضها مع بعضها الآخر، فابن الأحمر في (نثير الفرائد) حدَّدَها بسنة تسعٍ وعشرين وسبعمائة [٢]، في حين يحددها عَنان مثلاً في العشرين من شهر ربيع الآخر سنة ثماني عشرةَ وسبعمائة [٣].

وهذا ما يزيد القيمةَ التوثيقيةَ للشعر الأندلسي المتمثل بنصِّ ابن الجيَّاب المتقدم، ويثبت ابنُ الجيَّاب مرة أخرى أنَّ شعره وثيقةٌ تاريخيةٌ لا يمكن إغفالها، فقد شهد البلاطُ الغرناطي في بعض أوقاته عَلاقةً مميزةً مع الحفصيين بتونس، وقد أشار الشاعرُ إلى زَهْو الأندلس بعَلاقة كهذه من خلال مدحه لمحمد بن الحكيم اللخمي (وزير أبي عبد الله المخلوع) جاء فيها:

ولتفتخر أندلس أنها بعَدْله المشهور دار القرار
بسعده دانت لها تونس فاعتمدتها بالهدايا الكبار
وأتحفت قولاً وفعلاً بما قد ألبس الأعداء ثوب الصغار
وخلّدته أثراً باقياً مشتهراً في الأرض أَيّ اشتهار[٤]

---

(١) ديوان ابن الجيَّاب: ٢٣٩.

(٢) ينظر: نثير فرائد الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان: أبو الوليد إسماعيل ين الأحمر، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٧: ٢٦٩.

(٣) ينظر: دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧: ١١٨.

(٤) ديوان ابن الجيّاب:٧٦.

غير أنَّ بعضَ المصادر التاريخية كاللمحة البدرية كان صاحبُها قد أدرجها بتقديم يفيد أنها في مدح الأمير الحفصي أبي عبد الله محمد بن يحيى بن المستنصر[1]، وقد استدللتُ على أنها قيلت في مدح الوزير بما قاله عَنان: ((وغلب عليه كاتبه ووزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله بن الحكيم اللخمي، فاستبدَّ بالأمر دونه وحَجَرَ عليه))[2] ؛ لتتضافر هذه الشهادةُ التاريخية مع الشهادة الأدبية ويكون لها أثرٌ في التوثيق الدقيق.

وربما هو الأثر نفسه الذي خلّده ابن الجيَّاب في توثيقه لهذه العلاقة وشهادته على أنَّ دفاعَ الحفصيين أنقذ الإسلامَ في الأندلس في معركة معينة وقعتْ سنة (٧١٨هـ)، في ظلِّ غيابٍ شبه تامٍ للتوثيق التاريخي الذي أشار– في حدود ما نعلم – إلى هذه المعركة، غير أنه لم يُشِرْ إلى مشاركة بني حفص، يؤكده بقوله:

لولا دفاعهم وصدقُ مَضَائهم ... لتهدّمت للدين منه مباني
وخَلَتْ مساجده الكريمةُ واغتدى ... الناقوس فيها ناسخًا لأذانِ
وكفاهُمُ شرفًا وذكرًا خالدًا ... أفعالهم يوم التقى الجمعان
صبروا وقد ضاق المجالُ بمأزقٍ ... صَمَدَتْ به الشجعانُ للشجعانِ[3]

ومن النصوص التي آثرتُ أنْ أعقدَ من خلالها موازنةً بين القيمتين الأدبية والتاريخية ما تمَّ توثيقُه من ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ) بعد الوقيعة البحرية بالروم سنة (٧٤٠هـ) التي جاءت انتقامًا وثأرًا لأبي مالك ابن السلطان الحسن المريني، يقول فيها:

---

(١) ينظر: اللمحة البدرية في الدولة النصرية: لسان الدين بن الخطيب، دراسة وتحقيق: د. محمد مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩ : ٩١.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس): ١١٢.

(٣) ديوان ابن الجياب: ٢٥٤.

لعمري لئن هاجت عزائمك العدى كما بَحَثَتْ عن حتفها رَبَّةُ الظّلَفِ
وغرّتهم الحربُ السجالُ وقلما يدلُّ غرور القوم الإ على الحَتْفِ
فقد آن أخذ الدين منهم بثأره وما كان جَفْنُ الدهر في مثلها يُغفي[1]

فاجتمعتْ لأبي الحسن أساطيلُ بني مرين فألحقوا بالنصارى شَرَّ هزيمةٍ، وما ألحظُه من المصادر التاريخية كـ(الاستقصا) مثلاً، أنها أغفلتْ دورَ الأسطول الغرناطي ومشاركته، وجَيَّرَتْ الانتصارَ للأسطول المغربي فقط [2]، غير أنَّ ابنَ الخطيب وثَّقَ شهادتهَ التاريخيةَ بمشاركة الأسطول الغرناطي، فكان ((تردُّدُ صدى هذا الانتصار في المادة الشعرية الأندلسية منسوبًا إلى الأسطول الغرناطي في عهد أبي الحجاج خيرَ معينٍ لمزيد من الضبط والتدقيق))[3].

يقول ابنُ الخطيب: ((وأنشدته.. في الوقيعة البحرية بالروم في عام أربعين وسبعمائة:

فَتَحَتْ سعودُك كلَّ باب مُبْهمٍ وجلا يقينك كلَّ خطْبٍ مظلمِ
وجنيتَ غَضَّ الفتح من وَرَق الظُبا والنصرَ من غرس القنا المتحطّمِ
ولك الجواري المنشآتُ سوابحًا في اليمّ أمثال الصقور الحُوَّمِ
تلك الجواري المنشآتُ صَدَاقُها صُبُراً على لفْحِ المِصَاعِ المُضْرم
قَصَدَتْ يهم بحر الزَّقاقِ عزيمةٌ قد جَرَّدت أسيافها لم تكْهمِ))[4]

ثم يستمر في تصويره لهذه الموقعة، ويشير إلى سقوط أحزاب الصَّليب صرعى ما بين طعامٍ للطير ووليمة للحوت بقوله:

---

(١) ديوان ابن الخطيب: ٢/٦٧٥-٦٧٦.

(٢) ينظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: أحمد بن خالد الناصري، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكاتب، ١٩٩٧، المجلد ١، الجزء ٣: ١٣٥ – ١٣٦.

(٣) القيمة الوثائقية للنص الشعري من خلال شعر الوزير ابن الخطيب: د. جمعة شيخة، مجلة كلية الآداب بتطوان، ١٩٨٨: ٣١٥.

(٤) ديوان ابن الخطيب: ٢/٥٣٧ – ٥٣٨.

فتـركن أحـزاب الصـليب كأنمـا ثملـوا بمختـوم الرحيـق مُفَـدَّمِ
صرعى علـى عَفْر الرمـال وليمـة للحـوت أو للطيـر أو للضـيغم (١)

ويؤرخها أيضًا أبو العلاء محمد بن سماك العاملي (أحدُ كتّاب الدولة النَّصْرية ت٧٥٠هـ) بقوله:

فـتحٌ قضـاه لُملكـك الـرحمنُ لـم تـأتِ قـطُّ بمثلـه الأزمـانُ
فـلأي يـومٍ سـعادةٍ أوْلاكـه ذَلَّـتْ بعـزّه ونصـره الصُّـلبانُ
بشـرى كمـا فَغَـمَ العبيـرُ لناشـقٍ وافتَّر عن أزهاره البستانُ (٢)

وإذا كانـت بعـضُ المصـادر التاريخيـة قـد أغفلـتْ – كمـا رأينـا فـي الوثيقـة البحرية – دورَ الأسطول الغرناطي ومشاركته في عمليات التحرير والاسترداد، فإننا بالمقابـل نجـدُ بعـضَ النصـوص الشـعرية تغفـلُ خـوضَ القـوات المرينيـة غمـار تلـك المعركـة، تمامًـا كمـا حصـل فـي معركـة (طريـف سـنة ٧٤١هـ) التـي هُـزم فيهـا الأندلسـيون هزيمـةً كبيـرةً، إذ أشـارتْ مصـادرُ التـاريخ إلـى أنَّ المعركـةَ هـذه جـرتْ أحداثُها تحت إشراف أبي الحُسين المريني وأبي الحجاج (٣)، لكنَّ ابنَ الخطيب يؤرخُ أحداثَها وخوضَ غمارِها لصالح القوات الغرناطية فقط، وذلك في حدود قوله:

حتـى إذا مَحَّـصَ اللهُ القلـوبَ بهـا ولا دفـــاعَ لُحكـــم الواحـــد الصَّـــمَدِ
وقفـتَ والـرَّوْعُ قـد ماجَـتْ جوانبُـه بحيـــث لا والـــدٌ يلـــوي علـــى وَلَـــدِ
وصلتَ يوم التقى الجمعان مُنصلتًا كالصَّقْر في السَرب أو كالليث في النقدِ
فأصـبح الـدينُ لا تخفـى معالُمـهُ وأصـبح المُلْـك مرفوعًـا علـى عَمَـدِ(٤)

---

(١) ديوان ابن الخطيب: ٥٣٩/٢.

(٢) الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٣: ١٩٨-١٩٩.

(٣) ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٥، ٢٠٠٨: ١٤/٥-١٥.

(٤) ديوان ابن الخطيب: ٢٧٧/١.

وإذا ما بحثنا عن تفسيرٍ لإهمال ابن الخطيب المتعمد ذكر مشاركة القوات المرينية فإنه لا يعدو أنْ يكونَ محاولةً منه لترسيخ وتعميق الاتجاه نحو القوات الغرناطية، وصرفِ النظر عن المشاركات المغربية الخارجة عن البلاط الغرناطي، فالمنافسةُ مع العدوة المغربية استمرتْ لآمادٍ طويلةٍ، وقد لا يخلو من تفسير ثانٍ له عَلاقة بالأول، وهو أنَّه ((شاعرُ البلاط، وعليه أنْ ينشرَ مفاخرَ البلاط الذي يعيش فيه، وعلى شعراء المرينيين أنْ ينشروا مفاخرَهم))[١].

ولعلَّ هذا الاعتدادَ بالذات يقودُنا إلى الاعتراف بأنه كان ممقوتًا على المستويين الشعبي والرسمي، فـ ((اجتماعُ السُّلطان والنفوذ في يد ابن الخطيب على هذا النحو كان سببًا في انحرافه عن جادَّة الاعتدال والرؤية، فجنح إلى الاستبداد واتباع الهوى))[٢]، الأمر الذي عرّضه للنكبة، وجعله يفكر تفكيرًا جديًا بالهروب ومغادرة الأندلس، وعلى عكس ما يمكن أنْ توهمَنا به المادةُ التاريخيةُ من أنَّه لم يفكرْ بالهروب إلى المغرب، نجد مادَّته الشعرية تفصحُ وترصد لنا وجهته التي اختارها وهي (تلمسان)، حيث راسَلَ الأميرَ (حمّو موسى) مادحًا إياه ومُعرِّضًا بفرعون زمانه، يقول منها:

وإذا طغى فرعونُهُ فأنا الذي من ضُرّه وأذاه عُذتُ (بموسى)[٣]

وبعد مخاضه هذا استقرَّ في المغرب المريني، وهذا ما بيّنه من خلال أبياته التي لم تَخْلُ من حسرةٍ وندمٍ. أما ديوانُ ابن فُركون (ت٨٢٠هـ) فيبدو أنَّ له قيمتين: **الأولى** أدبية، **والأخرى** تاريخية نفيسة رَصَدَتْ مدةً زمنيةً مهمةً في تاريخ الأندلس والمغرب ؛ ولأنَّ هاتين القيمتين مما لا يسعُ المجال لذكرهما، فسأشير إلى نصٍّ واحد أنشده بمناسبة بيعة السلطان الجديد الذي خَلَفَ يوسف الثالث (ت٨٢٠هـ)، وهو ولده الصغير (محمد) الذي بويع ابن ثماني سنوات، يقول في أولها:

---

(١) ديوان ابن الخطيب: ٥٩/١.

(٢) دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس): ١١٠.

(٣) ديوان ابن الخطيب: ٧٢٤/٢.

وفاز ابنُهُ الأرضى وحافظُ عَهْده بما حازه من مُلكِ آبائه الأُلى
على صِغَر السنّ استقلَّ بُرتبةٍ تحملّ من أعبائها ما تحمّلا (١)

ويسمي الملك ويذكر مكانته عند والده، فيقول:

وحيّـوا مـن المـوْلى الإمـام محمـدٍ كريمًـا حليمًـا مُنْعمًـا متفضـلاً
أمـولايَ مولانـا أبـوك أنـالني مـن العزِّ مـا سـام النجـومَ تنـزّلا
وأولـى مـن النعمـاء مـا كـان عاقـدًا علـيَّ بـه عقـد الـولاء مُسَـجّلا
وَجـرَّرْتُ ذيـلَ العُجْـب إذ كنـتُ عنـده أُبـاهي بأمـداحي جريـرًا وأخطـلا
ولوكـان يُفـدى بـالنفوس وسـابَقَتْ لتلقـى المنايـا دونـه كنـتُ أوّلا (٢)

ولعلَّ هذا النصَّ مَثَّلَ وثيقةً جديدةً صَحَّحَ ابنُ فركون بموجبه الخطأ الذي وقع فيه عددٌ من المؤرخين الإسبان المحدثين حول خَلَف يوسُف الثالث، ويؤيد ما انتهى إليه الأستاذ (لويس سيكودي لوثينا) من أنَّ هذا الخَلَف هو ولده محمد الثامن المدعو بالصغير، أو ELPEQUENO، وليس محمد التاسع ابن نصر الملقب بالغالب بالله. على أنَّ هذا قام على ابن عمِّه وأفلحَ في نهاية الأمر بعد أحداثٍ مشروحةٍ في المدوّنات المسيحية من اعتقاله في شلوبانبه، والقضاء عليه وعلى أخيه أبي الحسن(٣).

بعد هذه النصوص الشعرية الموازنة للنصوص والوثائق والشهادات التاريخية تتجلى لدينا حقيقة الشهادة الأدبية التي لا تقلُّ أهميةً عن الشهادة التاريخية، وعندي أنَّ هذه الوثائقَ شكَّلَتْ متنفسًا لعديدٍ من الرؤى التاريخية التي اكتنفها الضَّبابُ، زيادةً على أنها شَكَّلَتْ حضورًا مكثفًا وشرحًا وافيًا لطبيعة العَلاقة بين الشاعر والمؤرخ، أو إنْ شئتَ قُلْ بين عاطفة الأول ومنطقية الثاني.

---

(١) ديوان ابن فركون، تقديم وتعليق: محمد ابن شريفه، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ط١، ١٩٨٧: ٤٦.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٤٦.

المبحث الثاني

القيمة التوثيقية للشعر السياسي والعسكري

لم تكن الأحوالُ السياسيةُ في مملكة غرناطة تنعم بالأمن والهدوء والاستقرار، وإنما ساد أجواءَها مناخٌ سياسيٌ مضطربٌ كان له تأثيرٌ واضحٌ في ملامح المجتمع الأندلسي، ولا سيما في فن الكتابة وأغراض القول.

وقد تميَّزَ الشاعرُ الغرناطي بأنه أدرك أهميةَ التاريخ والشعر فَجَمَع بينهما، وظلَّ ((قابعًا في دائرة الشهادة التي يمكنُ أنْ نصفَه من خلالها بأنه شاهدٌ على عصره))[1]، وموثقٌ لأحداثه، سواء أكانت هذه الأحداث على المستوى الداخلي المتمثل بالاضطرابات والأحداث المريرة أم على المستوى الخارجي المتمثل بالصراع المرير مع الروم.

إنَّ مبلغَ الجهد في هذا المقام هو أنْ أتتبَّعَ الأحداثَ والوثائقَ الشعريةَ التي سَكَتَتْ عن توثيقها مصادرُ التاريخ، ولم تسجِّلْها بل ولم تُشِرْ إليها من قريبٍ أو من بعيدٍ، على العكس تمامًا مما رأيناه في المبحث الأول من حضورٍ قوي للتاريخ.

ومع الإيمان المطلق بأنَّ الشعرَ – على أهميته– غيرُ كافٍ للتوثيق، إلا أنَّه في ظلِّ الأحداث الغرناطية المريرة يعد كافيًا لا سيما بعد الانحسار التأليفي الواضح، وقد اجتمع لديَّ دليلان أراهما كافيين للدلالة إلى ما ذهبتُ إليه من أهميةٍ تاريخيةٍ للشعر، وهما:

الأول: إشارة أبي الحسن النِّباهي (ت بعد ٧٩٢هـ) إلى غزوات الغني بالله غير الموثقة ما نصُّها: ((وفي النيّة إنْ فَسَحَ الله المدى أنْ أُصنِّفَ في جهاده وعدد غزواته))[2]، وهي إشارةٌ مهمةٌ تؤكد غيابَ التوثيق التاريخي في تلك المرحلة الزمنية الفاصلة.

والآخر: ألتمسُ صداه من قول ابن زمرك (ت٧٩٧هـ) في رثاء الغني بالله:

---

(١) الشاعر مؤرخاً: د. عبد الله التطاوي، دار غريب، القاهرة: ١١.

(٢) المقامة النخلية أو ما سميت بـ (الإكليل في تفضيل النخيل): أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي المالقي، نشرها جوزيف مولر في كتابه (نخب في تاريخ عرب الغرب): ١٣٦–١٦٠، نقلا عن صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ٢، العدد ١–٢ :١٦٣.

ثلاثين حولاً بعد خمس تعودّت يدافع عنها كلَّ خطب ويحميها
أُبكّيه للرايات يخفق بندُها وفي مرقب النصر المؤزر يُعليها
فكم من جهادٍ قد رفعتَ بنودَهُ وقد أثمرتْ فيه المعالي عَوَاليها[1]

نفهم من هذا أنَّ هناك جهادًا وأحداثًا وغزواتٍ لم يتمّ توثيقها ولم ترصدْها كتبُ التاريخ، وهذا ما فتح المجالَ للشعراء لأنْ يسجِّلوا شهاداتهم ويوثّقوها.

ولمعرفة طبيعة هذه الأحداث التي انفرد الشاعرُ الأندلسي بتوثيقها، رأيتُ أنْ أقسِّمَها على وفق العناوين والمحاور الآتية:

أولاً: التصوير المباشر:

وهو أنَّ الشاعرَ اتخذ من الواقعية أساسًا لتصويره الأحداث، حيث أتاح له موقعُه – إنْ كان في الحرب أو السّلم – أن يكون شاهدًا وموثقًا، من غير تضليل في الحقائق ولا تشويه لوقائع العصر، ولعلَّ الأمثلةَ الدالةَ على الموقف العملي للشاعر كثيرةٌ، منها قولُ أبي علي بن تدرارت (قسنطيني الأصل) في موقف حربي فَرَّ فيه الجمهور وأجبره على أنْ يقعَ مع ثلة قليلة من رفاقه في أيدي الأعداء:

وحين تولّى الجمع والله غافرٌ ونُكراً أتى مَن لا يُظَنُّ به نُكْرُ
صبرنا ولم نَرْضَ الدنيّةَ خطةً ولا ضاق ذرع من كريم ولا صَبْرُ
وقد وُجّهتْ راياتُ الأذفنش نحونا وجاء بها فيمن له جُمِعَ الصُّفْرُ[2]

ويُصوِّر في موضع آخر موقعةً أخرى شاهدها بنفسه وأبلى فيها بلاءً حسنًا:

أرقتُ لِخَطْبٍ قد أقضَّ المضاجعا وشأنٍ له تذري الشؤون المدامعا
أرقتُ له فجْعاً أهاج بلابلي وبلوى قد استصغرتُ فيها الفجائعا
أمن بعد رُزْءٍ بالجزيرة فاجعٍ نُسرُّ بشيء أو نرى الشملَ جامعًا[3]

---

(١) ديوان ابن زمرك، تحقيق وتقديم: د. محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧: ٥١٠-٥١٢.

(٢) مذكرات ابن الحاج النميري الأندلسي، تحقيق النص ودراسة، رسالة للحصول على درجة الماجستير، الفريد دي برمار، ١٩٦٨ : ١٥ .

(٣) المصدر نفسه: ١٠.

وتأتي أهميةُ توثيقه هذا بما عزّزه بقوله:

وقلتُهُ وقد ضَيَّقَ صدري الحادث العَمَمُ والخطب الذي لا يُطفأ له ضَرَمٌ[1]

ويكتسب التوثيقُ أهميةً أكبرَ حين نجد النصَّ الشعريَّ مرآةً تعكس كلَّ ما رآه الشاعرُ من أحداثٍ ومواقفَ، موثقًا إياها للحظتها باختياره لألفاظٍ تدلُّ على مواكبته الحدث، فابنُ الحاج النُميري (ت ٧٩٣ هـ) يشير إلى غزو متكرر على قرطبة، فيصفُ مشهدًا كان طاغية النصارى حاضرًا فيه صاغرًا بين يدي الغني بالله، فيعمدُ إلى الدقة في الوصف من خلال استعماله لبعض المفردات كـ(شهدتُ) التي تعكس جودةَ توثيقه، فيقول:

وشهدتُ طاغيةَ النصارى خادمًا فيهنّ بين يديك خدمةَ مُنْصفِ
متطأطئًا لك حاسرًا عن رأسه يرجو ويأمل منك نيلَ تعطّفِ
والرومُ رامتْ أنْ تجودَ برأفةٍ فالويلُ كلَّ الويل إنْ لم ترأفِ

ويؤكد حضورَه في الغزوة بقوله:

لكن نفى همّي حُضوري قبل ذا غزوًا بقرطبةٍ جَلا ذكرًا يفي [2]

هكذا إذن نفهمُ موقعَ الشاعر من الوقائع، وأحسبُ أنه موقعٌ يؤهله للإدلاء بشهادته وتوثيقها.

ثانيًا: التفرُّدُ الأدبي الصَّريح:

ويندرج ضمن هذا المفهوم كلّ حدثٍ أهمله المؤرخون وانفرد بتوثيقه الشاعرُ الغرناطي، وقد رصدْتُ بعضًا من النصوص التي سَجَّل من خلالها ابنُ الخطيب شهادته، في ظلِّ اعترافٍ صريحٍ من بعض المحققين أو الدارسين بغياب التوثيق التاريخي، من ذلك قولُ الدكتور محمد مفتاح في بعض الوقائع ما نصُّه : ((إننا نجد في شعره ذكرَ بعض الوقائع كفتح كركبول وشوذر، وتخريب حصن استجّه،

---

(١) مذكرات ابن الحاج النميري : ١٠.

(٢) ديوان ابن الحاج النميري، تقديم وضبط: د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الامارات، ٢٠٠٣: ١٨٦-١٨٨.

وفتح معقل بني بشير، وهي وقائعُ لا ذكر لها في كتب التاريخ المغربية، ولعلَّ المغاربةَ لعبوا دورًا أساسيًا فيها، فلم يبلغنا أنَّ الأندلسيين قاموا بمعاركَ في هذه المدة إلا بمعونة من المغاربة))[1].

فمن الأمثلة على فتح كركبول (٧٤٠هـ) قوله يهنئ سلطانه أبا الحجَّاج:

بشرى يقومُ لها الزمانُ خطيبًا وتأرَّجُ الآفاقُ منها طيبا

هذا طلوعُ فتوحك الغُرّ التي ما كان طالعُ سَعدها ليغيبا[2]

وقوله في وقعة شوذر:

هو النصرُ بادٍ للعُيون صباحُهُ فما عذْرُ صَدْرٍ ليس يبدو انشراحُهُ

حديثٌ تهاداه الركائبُ في السُّرى وتُجلْى على راح المَسرَّة راحُهُ [3]

وقوله في تقدّم أبي الحجاج إلى أرض قشتالة وتخريب حصن استجّه وفتح معقل بشير سنة (٧٤٣هـ):

ثم ارتقيتَ ثنيّة الثغر التي هي للضَّلال مُعَرَّسٌ ومقيلُ

ورمَيْتها بعزيمةٍ نصريةٍ كادتْ لها شُمُّ الهضاب تزولُ[4]

ويبدو أنَّ ابنَ الخطيب كان سبَّاقًا لرصد الآثار التاريخية التي لم تُشِرْ إليها مصادرُ التاريخ المغربي والأندلسي، فقد نظَمَ للغني بالله قصيدةً لاميةً طويلةً بلغتْ مائتي بيت سميت بـ(المنْح الغريب في الفتح القريب) وفيها تعرّض إلى حدث تاريخي بارز يتمثل بمعونة المغاربة لاسترجاع حقِّ سلطانه المفقود، يقول فيه:

والرومُ لاسترجاع حقِّك شَمَّرَتْ هذا هو النصرُ المعِمُّ المخوِلُ[5]

ولعلَّ المفارقةَ في هذا الحدث هو اصطناعُ مَن أسماهم بـ(المُعِمّ) وهم أبناء عم الملك النصري، و(المُخِول) وهم أبناء خاله من القشتاليين، ولم يُشِرْ إلى أهل بيته

---

(١) ديوان ابن الخطيب: ١/٦٠.

(٢) المصدر نفسه : ١/١٠٣.

(٣) المصدر نفسه : ١/٢١٩.

(٤) المصدر نفسه : ٢/٤٨٨.

(٥) المصدر نفسه: ٢/٥٠٠.

من الغرناطيين. ولأهمية هذا الحدث غير الموثق من أهل التاريخ فقد علّق عليه الدكتور عبد الهادي التازي بقوله: ((أمامَ سكوت مصادر التاريخ المغربي والأندلسي عن الذين ساعدوا السلطانَ الغنيَّ بالله على العودة إلى عرشه، نلاحظ أهميةَ هذا البيت الذي ينصُّ نصًا على أنَّ الروم كانوا بتنسيق مع المغاربة وراء ذلك، والإشارة إلى (بيدرو) الملقب بالقاسي الذي هَيَّأ الجو وأعدَّ قطعاً من الأسطول لذلك، وتدلُّ عبارة (المُعِمّ المُخول) على أنه نصرٌ تضافرت عليه جهود المغاربة: أبناء عمّ الملك النصري وجهود القشتاليين أبناء خال الملك المذكور))[1]. ويمكن التماس أكثر من نصٍ شعريٍ دالٍّ على ذلك[2].

ثالثاً: صدق التوقعات:

وفيها يتكئ الشاعر على حَدَسه وتوقعاته، ويتخذ منه أساسًا يبني عليه وثيقته الشعرية، وربما هي محاولة منه لرفع الروح المعنوية وشدّ عزائمها قبل اندلاع أي حدث.

وقد صدقت بعض هذه التوقعات، أذكر منها على سبيل المثال قولَ ابن الجيَّاب بمناسبة قدوم الوصي القشتالي (بيدرو) إلى مرج غرناطة، حيث دارتْ معركةٌ تحقَّقتْ فيها توقعاتُه، وصدقتْ رؤيتُه، فيقول قبل اندلاعها:

أما العدوُّ فمكبوتٌ ومخذول وحدُّه حيث أمضاه مَفْلولُ

فلا تَخَفْ منه بأساً طاف طائفُهُ ولا يهولنْك ترويعٌ وتهويلُ

ومنها في تفاؤله بالنصر:

---

(١) ابن الخطيب سفيرًا ولاجئًا سياسيًا: د. عبد الهادي التازي، مجلة كلية الآداب، تطوان، ١٩٨٧: ٨٤.

(٢) ينظر: ديوان ابن الخطيب: ١/٣٩٠-٣٩٢.

كــأنني بــاللعين الكلــب(بِطــرْهم) عـانٍ علـى أدهـم الحـدّاد محمـولُ
فأبشــري اليــوم يــا أرجــاء أنــدلسٍ هذا دَمُ الكُفْر في الآفاقِ مطلولُ[1]

وعلـى مـا يبـدو فـإنَّ رؤيـة الشـاعر المتحققـة هـذه لـم تـأتِ مـن فـراغ البتَّـةَ، إذ صدرت عن رجل مدرك تمامًا للإمكانات المادية والمعنوية المرصودة لموقعةٍ كهذه، ويكفيه أنه أحدُ رجالات الدولة، شأنه بذلك شأنُ ابن الخطيب الذي سبق الأحداثَ، فأرسل نصّـه السـابق (وهـو فـي رنـدة) يستبشر فيـه وقـوع الفتح لسلطانه الغنـي بـالله، يقول فيه:

تــاب الزمــانُ إليـك ممـا قـد جنــى والله يـــأمر بالمتـــاب ويقبـــلُ
إنْ كـان مـاضٍ من زمانـك قد أتـى بإساءة قد سَرَّك المستقبلُ [2]

وهذا ما تحقق لـه بأنْ تمتْ عودة الغنـي بـالله إلـى بلاطـه، وبذلك يكتسي هذا النصُّ الشعري وغيره قيمته التوثيقية.

رابعاً: النصيحةُ والمشورةُ وتعدُّد الرأي:

وقد تأخذ الوثائقُ الشعريةُ طابعَ المشورة التي قد تفوق أهميتها وما تتضمنه من نصـائح أيّ أمـر آخـر، لاسيما إنْ صـدرتْ عـن شـخص يملـك جـرأةً لأنْ يخاطـبَ سلطانه ويقّدمَ لـه رأيه، كما فعل ابنُ زمرك حين وجَّـه مشورته إلـى الغنـي بـالله يحثـه فيها على الجهاد قائلاً:

يــا ناصــر الإســلام يــا ملــك العــلا الله يؤتيـــك الجـــزاء جـــزيلا
جَهّــزْ جيوشــك للجهــاد موفقًــا وكفـــى بربـــك كافيًـــا ووكـــيلا
ولتبعــد الغــارات فـــي أرض العــدا والله حسـبك ناصـراً ووكـيلا [3]

(١) ديوان ابن الجيَّاب: ١٩٢.

(٢) ديوان ابن الخطيب: ٤٩٦/٢.

(٣) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض: شهاب الدين المقّري، تحقيق: مصطفى السَّقا وآخرون، مطبعة فضاله المحمدية، الرباط، ١٩٧٩: ١٠٢/٢.

وإذا مضينا قُدُمًا إلى يوسُف الثالث فإنَّ سياسته تجاه قشتاله تراوحت بين الحرب والسلم والجهاد والمهادنة، فحين اعتلى عرشَ غرناطة كان أول أمر اتخذه الهدنة مع الإفنت القشتالي، ولأهميتها فقد تعددتْ الآراءُ فيها، فمنها ما اتخذتْ طابعًا تحريضيًا، ومنها ما اتخذ أصحابها – كابن فركون – سياسةَ المهادنة والمصالحة، حيث وجَّه مشورته ليوسُف الثالث قائلاً فيها:

تـأتي وفـود الـروم تخطُـبُ سَـلْمه فيكُـفُّ كـفَّ القـادر المتعفّـفِ
وولـيّهم يخشـى فيُـردف رُسْـله إرسـالَ جـيش بالملائـك مُـرْدفِ
أعـد الجـوابَ بهـا علـى ظمـأٍ لهـا تَنْقَـعْ جـوى المتشّـوق المتشـوّفِ
واجـنحْ إليهـا منْعمًـا متفضـلاً لا زلـتَ أكـرمَ واهـبٍ متعطّـفِ (١)

ومن قبله وَجَّهَ الفقيه الشاعر ابن السّراج الرندي نصيحته وعَبَّر عن رأي الداعين إلى الجهاد بقوله:

فهبـوبُ ريـح النصـر آن أوانـه ووصولُ وقت الفتح دان بوصْله
حكمـت ميامنـه بعـزّ جنـوده وقَضَـتْ بهـونِ عـدوّه وبذلّـه (٢)

ويبدو أنَّ مشورات الشعراء الداعية إلى الجهاد كانت لقيتْ ترحيبًا عند يوسُف الثالث، فأعلن أنْ لا سبيل سوى الجهاد، وذلك بقوله:

لهـفُ نفسـي علـى الثغور تخّلت فَهْـيَ صـفْرٌ مـن الكُمـاة الحُمـاةِ
وأنـاسٍ علـى المعاصـي جهـارًا قـد أبـاحوا حريمنـا للعُـداةِ
لستُ للصّيد من خلائف نصرٍ يـومَ أهْنـا بسـلمِ تلـك العُتَـاة (٣)

واذا كانت المدائح المتقدمة قد بَيَّنتْ أنَّ (الإنفنت) هو الطالب للهدنة، فإنَّ نصَّ يوسُف الثالث قد فَنَّدَ فكرةً كهذه، وزعم أنَّ (الإنفنت) تلكأ في الاستجابة لطلب

---

(١) ديوان ابن فركون: ٦٢.

(٢) المصدر نفسه:٦١.

(٣) ديوان يوسف الثالث، حققه وقدّم له: عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥: ١٨.

الهُدنة أولاً، مما قاده إلى تعزيز طموحه بأنْ يعلنَ حالةَ الجهاد [1]، وبالتالي كان لشعره قصبُ السَّبق في التوثيق التاريخي.

(١) ينظر: ديوان ابن فركون: ٦٣.

المبحث الثالث

القيمة التوثيقية للشعر الاجتماعي والعُمراني

لئن أدلى الشاعرُ الأندلسي في الجانبين السياسي والعسكري شهادته المعّبرة عن روح العصر، فإنَّ حدائقَ غرناطة غَدَتْ وثيقةً أدبيةً تاريخيةً بموجب ما احتوته جنباتها من قيمٍ جماليةٍ ونصوصٍ شعريةٍ دلَّتْ على مضامينَ اجتماعيةٍ وعمرانيةٍ مهمةٍ، إذ استدعت الآثار المعمارية وما تبقى من الصَّرح الحضاري الإسلامي، وأثْرَتْ الخزانةَ الأندلسيةَ وأعطتها كشْفًا شعريًا جديدًا لبعض مناحيه الاجتماعية والفكرية.

ولعلَّ توثيقًا نوعيًا كهذا قد يثير نوعًا من التساؤلات: هل إنَّ غايةَ هذه الدراسة هي دراسة النص الشعري لذاته ؟ أم دراسة ظاهرة النقش الفني بأشكاله المتعددة ؟.

الواقع أنني لا أهدف إلى تتَبُّع وتَلَمُّسِ ظاهرة التشييد المعماري لذاته، ولا دراسة المنقوشات الشعرية واستقصائها، فذلك ميدانٌ كُتبتْ فيه دراساتٌ وأبحاثٌ حضاريةٌ وتاريخيةٌ متعددة[1]، ولكن حرصْتُ على أنْ يكونَ هذا المبحثُ معقودًا حول النصِّ الأدبي المنقوش على جدران القصور الغرناطية، بوصفه قيمةً وثائقيةً لحركة المعمار، زيادةً على تبيان العَلاقة المتينة والوشائح القوية بين هذا النوع من النصِّ الأدبي والحياة الاجتماعية العامة.

ونظرًا لما تمتَّعَتْ به الحركةُ المعماريةُ والنقوشُ الكتابيةُ من أهميةٍ كبيرةٍ انبعثت من كونها وثائق ومستندات جمعت بين الجانبين الجمالي والتوثيقي، فإنها لم تَخْلُ من جملة اعتراضات وشكوك في قيمتها، فوصفوها بالرَّتابة الموهنة، وباستعاراتها المتكلفة، وبتكرارها الممل [2]، ومنهم من ذهب إلى أبعد من ذلك مشبهًا إياها بالفقاعات والمناطيد، يقول غرسيه غومس: ((لم يكنْ هذا الشعرُ قانعًا بأنْ يظلَّ

---

(١) ينظر: مع شعراء الأندلس والمتنبي، سير ودراسات: إميليو غرسيه غومس، نقله إلى العربية: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨: ٢٤٣-٢٥١.

(٢) ينظر الأدب الأندلسي: ماريا جيسوس روبيراتي، ترجمة: أشرف دعدور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩: ١٥٧.

حبيسَ مخطوطاتٍ يعلوها ترابُ الزمن، وحينما لم يعد قادرًا على أنْ يشغلَ أو يطرب الأسماعَ انفجر ذلك المنطاد وتحول إلى فقاقيعَ جمُدت على الجدران، فألقت عليها ما كساها من ألوان قوس قزح، فأصبحت – ومازالت – متعة للعيون بعد أن انقلبت إلى نسيج متشابك من الكتابات المنقوشة كأنها كفنٌ على نعشٍ من الزخارف والتوريقات))[١].

وعلى ما يبدو فإنَّ قولاً كهذا كان جانَبَ الصَّوابَ، إذ إنَّ النزعةَ الجماليةَ في غرناطة كانت – بحسب آراء بعض الدارسين – متحفًا لا نظير له للعمارة والفنون الإسلامية في الأندلس[٢]، وامتدّ تأثيرُها ليصبحَ مصدرَ إلهامٍ لشعراء وأدباء أجانب منهم الفرنسي فرانسو شاتوبريان، والأمريكي واشنطن أرفنج ، والإسبانيان ماريا لوركا وأنطونيو جالا [٣].

أما شعراءُ الأندلس فقد سجّلوا لنا أفخمَ توثيقٍ معماري وأجملَه، فلم يسبق أنْ صدر ديوانٌ شعري كديوان ابن زمرك مُذَهَّب ومنقوش على الجصِّ والحجر والرخام، ومزخرف بأروع التشكيلات الهندسية والنباتية [٤].

على أنَّ الأمرَ لم يقتصرْ عند حدود ابن زمرك فحسب، وإنما سبقه في مجال التوثيق المعماري غيرُ شاعر كابن الجيَّاب الذي زَيَّنَ بقصائده قصر جنة العريف[٥]، وابن الخطيب الذي حَفَر جانبًا على حوائط مباني الحمراء [٦].

---

(١) ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي: إميليو غرسيه غومس وآخرون، ترجمة: د. محمود مكي، القاهرة، ١٩٩٩: ٨٠٤.

(٢) ينظر: قصور الحمراء، ديوان العمارة والنقوش العربية: د. محمد عبد المنعم الجمل، مكتبة الإسكندرية، عن طريق شبكة الإنترنت، كلمة البحث (ديوان الحمراء).

(٣) ينظر: المصدر نفسه، كلمة البحث (ديوان الحمراء).

(٤) ينظر: المصدر نفسه، كلمة البحث (ديوان الحمراء).

(٥) ينظر: اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة: د. أيمن ميدان، أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٦: ١٩٤.

(٦)ينظر: الأدب الأندلسي: ماريا جيسوس: ١٦٠.

وفي ديوان ابن الجيَّاب إشاراتٌ واضحةٌ عن المسجد الأعظم في غرناطة، ولعلها اتفقت مع الرواية التاريخية في توثيق مصادر تمويل المشروع، فقد جاء في اللَّمحة البدرية ما نصُّهُ: ((وأنفق فيه مالَ جزيةٍ، أغرمها مَن يليه من الكفار، فَدَوْا بها زرعًا جهَّزَ جيشًا صائفة لانتسافه))[١]، ومن قول ابن الجيّاب في ذلك:

وأنفق في بُنيانه ما أفاءه عليه اقتحامُ المأزق المتلاحم

وأوجب فيه كلّ مالٍ مبارك أفاءته أطراف الظبى واللهازم[٢]

ولابن الخطيب نصيبٌ وافرٌ من وصف منقوشات الحمراء وتحديدًا قاعة الأختين أو ما سميت بقبة المشور الجديد، يقول فيها:

شاهد بعينيك مني قُرَّة العين واعجب لما حُزْتُ من شكل ومن زيْنِ

أنا الفريدة في دهر ديانُتُه أنْ لا يرى جامعاً ما بين أختين

كم جَمَّعَ الظرفُ مني بين مفترقٍ كم ألّفَ الحُسْنُ مني بين لونينِ

كأنني لمبَاني الملك أجمَعِهَا عينٌ ومولاي كالإنسانِ في عيني

(محمدُ بنُ أبي الحجاّج) أنشأني فحُجَّةُ الحمد حقٌ دون ما مَيْنِ [٣]

وفي هذا النصِّ توثيقٌ صريحٌ باسم القاعة المسماة بـ(قاعة الأختين)، فضلاً عن توثيقها اسم السلطان الذي أُسست القاعة في عهده وهو السلطان أبو الحجَّاج.

أما ابنُ زمرك فقد وصف هذه القاعةَ بقوله:

ولله مبناك الجميلُ فإنه يفوقُ على حُكم السُّعود المبانيا

فكم فيه للأبصار من متنزهٍ تُجِدُّ به نفسُ الحليم الأمانيا [٤]

وليوسُف الثالث وابن فركون مشاركةٌ مميزةٌ في البناء والتشييد، فقد اعتنيا بالحمراء عنايةً فائقةً، وما ألحظُهُ على ديوان ابن فركون أنه كان مهتمًا بتحديد تواريخ هذه المباني، من ذلك قوله متحدثًا عن يوسُف الثالث: ((.. أمرني بنظم أبيات تُكتب دائرة بالطبقة الثانية، فقلت حسب ما اقترحه معنىً وقافيةً وعروضًا وعددَ أبيات بتاريخ الثاني لشعبان عام خمسة عشر وثمانمائة:

---

(١) اللمحة البدرية: ٨٨.

(٢) ديوان ابن الجيَّاب: ٥٥١.

(٣) ديوان ابن الخطيب: ٢/٦١٩-٦٢٠.

(٤) ديوان ابن زمرك:٥٢٢.

حَلَلْتُ من باب دار المُلكْ منزلةً من دونها الشُهّبُ في عليائها تَقِفُ
مولايَ جَدَّدَ آثاري وأكمل ما قد كان أغفله من قبله السَّلفُ
طيقانيَ الغُرُّ مهما حُلَّ مظهرها لا قَصْر إلا وبالتقصير يعترف[1]

ويتحدث عن تجديد قبتين متقابلتين بينهما بحيرة، فيقول: ((ولمّاَ شرَعَ أيدّه الله في تجديد القبتين الرائقتي الشكل، خَلْفَ هذه الدار الكبيرة، وإحياء رسمهما، أمرني بنظم أبيات كُتبتْ دائرةً في إحداهما، وبتاريخ الثامن والعشرين لربيع الأول عام خمسة عشر وثماني مائة فقلت:

أنا قُبَّةٌ للصَّنْع إذ أنا للصنيعة موضعُ
قابلت مثلي فانثنت في نيل وصفي تطمعُ
وترى البُحيرةَ بيننا مرآة هندٍ تلمعُ [2]

ولعل في هذه النصوص توثيقًا واضحًا لحركة المعمار، يؤكده محمد ابن شريفة في أثناء تقديمه لديوان ابن فركون في قوله: ((ولا نشك في أنَّ هذه المعلومات عن الحمراء في عهد يوسُف الثالث تحمل شيئًا من الجديد حول تاريخ هذا القصر الرائع الذي ما يزال محطَّ الأنظار، وقبلة الزُّوار)) [3].

وتماثل نصوص ابن فركون ويوسف الثالث بعض نصوص أبي البركات البلّفيقي (ت٧٧١هـ) الذي عُرف كما عُرِفَ جدُّه بعنايتهما للبناء، فيقول:

وقعودي ما بين رَمْلٍ وآجـ ـرٍ وجُص والطوب والأحجارِ
وامتهاني بُرديَّ بالطين والما ء، ورأسي ولحيتي بالغُبار
نشوةٌ لم تمرَّ قطُّ على قلْـ ـبِ خليعٍ، وما لها من خُمارِ[4]

---

(١) ديوان ابن فركون: ٥٠.

(٢) المصدر نفسه: ٥١.

(٣) المصدر نفسه: ٥٢.

(٤) شعر أبي البركات ابن الحاج البلفيقي، عناية: عبد الحميد عبد الله الهرامة، مركز جمعة الماجد، الإمارات، ط١، ١٩٩٦ : ٤٤ .

ومن المعلومات الجديدة التي فَرضَتْ وجودَها على التاريخ بشكل عام ما أدخله يوسُف الأول على الحمراء من تجديد كبرج القلهرة الذي يشرف على مقصورة قصر الحمراء، إذ اشترك في بناء هذا المشروع بعضُ النصارى الذين سُخّروا من مماليكهم، وإلى جمالها وحُسْن بنائها أشار ابن الجيَّاب بقوله:

قلهرةٌ ظهرت لنا واستنبطت قصرًا يضيءُ بنوره الوهّاجِ
فيها بدائعُ صنعةٍ قد نوظرت نِسبًا من الأفراد والأزواجِ
وصنائعُ الزّليج في حيطانها والأرض مثل بدائع الديباجِ
وكفى بعزّ الدين أنْ قد سُخّرتْ فيها مماليك من الأعلاجِ (١)

وهذه شهادةٌ تاريخية تجلَّتْ باشتراك بعض النصارى بتصوير هذه اللوحات المعمارية. وعلى عكس ما نجده في الرواية التاريخية من أنَّ بعض الدارسين ذهب إلى القول بأن التوريقات وما تكتسيه الدور والقصور من ترقيش وألوان زاهية قد نفذت في عهد (محمد الخامس) الذي استعان بخبراء وفنيين نصارى من إسبانيا وإيطاليا(٢)، في محاولةٍ لسحب الفضل من المسلمين، نجد ابن الجيَّاب يفنّد هذه المزاعم ويصرّح بما لا يدع مجالاً للشك باستمرار هذه الآثار الجميلة إلى ما بعد العهد المذكور، بدليل قوله يصف دارًا لأحد السلاطين مدبجًا بمختلف الزخارف والنقوش:

وشِدْتَ دارًا توازيه مباركةً ميمونة حَلَّ فيها خيرُ ميمونِ
قيد النواظر فالألحاظ قد قُصرتْ عليه ما بين تحريك وتسكينِ
وشيٌ خدود الغواني عنه قاصرةٌ يريك ما شئت من أبهى الأفانينِ
كروضةٍ دبجّتها مُزْنةٌ رُقمتْ فيها بدائع ترقيشٍ وتلوينِ
تبَّرجتْ للورى تختالُ في حُلَلٍ موشيّةٍ بأزاهير البساتينِ

---

(١) ديوان ابن الجيَّاب: ٢٧.

(٢) ينظر: غرناطة في ظل بني الأحمر: د. يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١،١٩٩٣ : ١٦٢.

وأودعت أرضها من حُسنها نسباً قد ضُوعفت بين تسديسٍ وتثمينِ[1]

وقد بلغت الحركةُ المعماريةُ أوجَها في زمن أبي الحجَّاج، إذ أنشأ المدرسة اليوسفية(سنة٧٥٠هـ) وبنى سور البيازين، وأصلح الحصون، وأوْلى عنايته للحمراء تزيينًا وإضافة، زيادة على بنائه لغرفتي البِركة والقنديل وباب الشَّريعة[2].

وجزاءً لعملٍ كهذا فقد وثّقَ ابنُ الجيَّاب وابنُ الخطيب هذا الإبداع المعماري، فنقش ابنُ الجيأَّب قطعةً شعريةً على باب المدرسة، ضمَّنها اسم السلطان الذي أنشأها[3]، وهي تُعَدُّ من أفضل الطرق والوسائل التوثيقية.

أما ابنُ الخطيب فقد وثَّقَ بعضَ نواحي هذه المدرسة، وزاد على قطعة ابن الجيَّاب بقوله:

ألا هكذا تُبنى المدارسُ للعلم وتبقى عهودُ المجد ثابتةُ الرَّسْمِ
ويُقصدُ وجهُ الله بالعمل الرضى وتجنى ثمارُ العزّ من شَجَر العَزْم
تُفاخُر مني حضرةَ المُلْكِ كلما تقدّم خصمٌ في الفَخارَ إلى خَصْمِ
جزى اللهُ يوسفًا خيرَ ما جزى ملوك بني نصرٍ عن الدين والعِلْمِ[4]

ولعلَّ في الاستعانة بنصِّ ابن الخطيب هذا وغيره ما يُعين على الحكم بأنَّ ما ذكره بعضُ الباحثين من أنَّ نقوشَ هذا الوزير الشاعر قد تَمَّ محوُها [5]، واستُبدلتْ بقصائد ابن زمرك دون أن يوضع في الاعتبار هذا النسيج المتجانس بين السابق واللاحق [6]، أمرٌ فيه نَظَرٌ، وإلا بماذا نفسر نصوصَه المنقوشة المتقدمة.

وتتأكد هذه القناعةُ بما قاله الدكتور صلاح جرّار من أنَّ جانبًا من أشعار ابن الخطيب وابن زمرك وغيرهما ممن وقع عليهم اختيار سلاطين بني الأحمر ونقشته

---

(١) ديوان ابن الجيَّاب: ٢٥٢.
(٢) ينظر: غرناطة في ظل بني الأحمر:٣٦-١٩١.
(٣) ينظر: ديوان ابن الجيَّاب: ٣٦.
(٤) ديوان ابن الخطيب: ٢/٥٧٠.
(٥) ينظر: الأدب الأندلسي: ماريا جيسوس:١٦٠.
(٦) ينظر: المصدر نفسه:١٦٠-١٦١.

الأيادي المبدعة ما زال ماثلاً في أجنحة الحمراء، ليبقى شاهدًا من شواهد الحضارة العربية وأثرًا من آثار أشهر شعراء عالم الحمراء المكتوب[١]. وأظهرُ دليلٍ يؤكد ذلك ما قام به الدكتور جرّار من تصويرٍ فوتوغرافي لمقطوعات وقصائد ابن الخطيب وابن زمرك وغيرهما من شعراء الحمراء اشتملت على اثنتين وثلاثين مقطوعةً، منها اثنتا عشرةَ مقطوعةً فقط للشاعر ابن زمرك [٢].

من هنا نجد أنَّ النصوصَ الشعريةَ الغرناطية شكلت رافدًا من روافد التوثيق التاريخي، سواء أتطابقتْ مع المدونات التاريخية أم لم تتطابقْ، وهو ما يعطيها قيمةً وأهميةً كبيرتين.

---

(١) ينظر: ديوان الحمراء، الأشعار العربية المنقوشة في مباني قصر الحمراء وقصر العريف بغرناطة: د. صلاح جرار، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٩٩ : ٥ وما بعدها.

(٢) ينظر: المصدر نفسه:٥-٦٦.

الخاتمة

بعد هذه الرِّحلة المتواضعة مع موضوع (القيمة الوثائقية للشعر الأندلسي وفاعليتها في عصر بني الأحمر) تتراءى أمامي مجموعة من النتائج والقناعات، وهي على النحو الآتي:

١. إنَّ وظيفةَ الأدب وأثره في المجتمع ودوره وتوثيقه لمجمل الأحداث كان وما يزال محورًا لكثير من الدراسات، وما تزال آفاقه رحبة ومجالاته واسعة لكل ما من شأنه أنْ يحدِّدَ أو يُسهمَ في تحديد هُوية هذا الأدب.

٢. تجلّى الحضورُ الشعري الأندلسي بأبهى حُلله من خلال ما وثّقه وأظهره من قيمٍ جمالية، وبما سطّره من وثائقَ ومستنداتٍ لا تقلُّ أهميةً عن الوثائق التاريخية.

٣. يسعى المؤرخُ – من خلال أداة العقل – إلى التحليل والتعليل والتفسير، حتى يصلَ إلى النتائج التي تقع ضمن عنوان الخطوط العريضة والنظرة الشمولية، في حين يعتمد الشاعر على أدوات القلب والوجدان، ويتعمق في الجزئيات، فيعكس ما في داخله من أبعادٍ نفسيةٍ واجتماعيةٍ وسياسيةٍ وحضاريةٍ.

٤. تكمن أهميةُ الوثائق الشعرية في أنها أرَّخَّتْ لأبعادٍ سياسيةٍ وعسكريةٍ واجتماعيةٍ وعُمرانيةٍ، إلى الحدّ الذي جعل من هذه الوثيقة الأدبية رديفًا للتاريخ وقسيمًا مشتركًا معه، ومتممًا لما غاب عنه من توثيق لاسيما في تلك الرقعة الجغرافية الضيقة بحدود مملكة غرناطة (٦٣٥-٨٩٧هـ).

٥. سَجَّل الشاعرُ الغرناطي حضورًا مهمًا من خلال تفرُّده بالشهادة التاريخية، وتوقُّعاته الصائبة الناتجة عن موقعه الميداني المهم، زيادةً على تصويره المباشر ونصائحه ومشوراته السَّديدة.

٦. وكذلك فقد سَجَّل هذا الشاعر أفخمَ توثيقٍ لحركة المعمار وأجملَه، فلم يسبقْ أنْ صدر ديوانٌ شعري كديوان ابن زمرك مُذَهّب ومنقوش على الجصِّ والرخام، ومزخرف بأروع التشكيلات الهندسية.

المصادر والمراجع

١. ابن الخطيب سفيرًا ولاجئًا سياسيًا: د. عبد الهادي التازي، مجلة كلية الآداب، تطوان، ١٩٨٧.

٢. اتجاهات الشعر في مملكة غرناطة: د. أيمن ميدان، أطروحة دكتوراه، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٩٦.

٣. الأدب الأندلسي: ماريا جيسوس روبيراتي، ترجمة: أشرف دعدور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٩.

٤. الأدب ومذاهبه: د. محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٨.

٥. أزهار الرِّياض في أخبار القاضي عياض: شهاب الدين المقّري، تحقيق: مصطفى السَّقا وآخرون، مطبعة فضاله المحمدية، الرباط، ١٩٧٩.

٦. الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى: أحمد بن خالد الناصري، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكاتب، ١٩٩٧، المجلد ١، الجزء ٣ .

٧. بحوث في النصِّ الأدبي: د. محمد هادي الطرابلسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٨ .

٨. بناء الحكاية التاريخية (تاريخ الطبري أنموذجًا): سعيد عبد الهادي المرهج، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٧.

٩. تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط: د. نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، وزارة الثقافة والإعلام البحرينية، ط١، ٢٠٠٤.

١٠. ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي: إميليو غرسيه غومس وآخرون، ترجمة: د. محمود مكي، القاهرة، ١٩٩٩.

١١. دولة الإسلام في الأندلس، نهاية الأندلس: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٩٧.

١٢. ديوان ابن الجيَّاب الغرناطي، تحقيق : فوزي عيسى، مكتبة الآداب ، القاهرة، ٢٠١٦.
١٣. ديوان ابن الحاج النُمَيري، تقديم وضبط: د. عبد الحميد عبد الله الهرامة، المجمع الثقافي، أبو ظبي، الامارات، ٢٠٠٣ .
١٤. ديوان ابن زمرك، تحقيق وتقديم: د. محمد توفيق النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
١٥. ديوان ابن فركون، تقديم وتعليق: محمد ابن شريفه، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ط١، ١٩٨٧.
١٦. ديوان الحمراء، الأشعار العربية المنقوشة في مباني قصر الحمراء وقصر العريف بغرناطة: د. صلاح جرار، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٩٩ .
١٧. ديوان لسان الدين بن الخطيب، صنعه وحققه وقدّمه: د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩.
١٨. ديوان يوسُف الثالث، حققه وقدّم له: عبد الله كنون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥.
١٩. الرؤية الداخلية للنص الشعري، محاولة في تأصيل منهج: د.أنس داود، مكتبة عين شمس، ١٩٧٥.
٢٠. الشاعر مؤرخاً: د. عبد الله التطاوي، دار غريب، القاهرة .
٢١. شعر أبي البركات ابن الحاج البلفيقي، عناية: عبد الحميد عبد الله الهرامة، مركز جمعة الماجد، الإمارات، ط١، ١٩٩٦ .
٢٢. الشعر والتاريخ: د. قاسم عبده قاسم، مجلة فصول، العدد ٢، المجلد ٣، ١٩٨٣.
٢٣. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد ٢، العدد ١-٢ .
٢٤. صدى سقوط غرناطة في الشعر الأندلسي: جمعة شيخة، مجلة دراسات أندلسية، العدد٧، ١٩٩٢.

٢٥. غرناطة في ظل بني الأحمر: د. يوسف شكري فرحات، دار الجيل، بيروت، ط١ ،١٩٩٣ .
٢٦. فن الشعر: أرسطو طاليس، تحقيق: شكري عياد و دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
٢٧. قصور الحمراء، ديوان العمارة والنقوش العربية: د. محمد عبد المنعم الجمل، مكتبة الإسكندرية، عن طريق شبكة الإنترنت، كلمة البحث (ديوان الحمراء).
٢٨. قواعد النقد الأدبي: كرومبي، ترجمة: محمد عوض محمد، القاهرة، ط٣، ١٩٥٤ .
٢٩. القيمة الوثائقية للنصِّ الشعري من خلال شعر الوزير ابن الخطيب: د. جمعة شيخة، مجلة كلية الآداب بتطوان، ١٩٨٨ .
٣٠. الكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٣.
٣١. لغة الشعر، قراءة في الشعر العربي الحديث: د. رجاء عيد، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥.
٣٢. اللَّمحة البدرية في الدولة النصرية: لسان الدين بن الخطيب، دراسة وتحقيق: د. محمد مسعود جيران، دار المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩.
٣٣. الماركسية والشعر: طومسون، ترجمة: القشيني، بغداد، ١٩٥٩.
٣٤. مجلة كلية الآداب بتطوان، جامعة محمد بن عبد الله، عدد خاص بندوة ابن الخطيب، السنة الثانية، العدد ٢، مطبعة النجاح، الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٨٧.
٣٥. مذكرات ابن الحاج النُمَيري الأندلسي، تحقيق النص ودراسة، رسالة للحصول على درجة الماجستير، الفريد دي برمار، ١٩٦٨ .

٣٦. مع المتنبي في شعره الحربي: د. هادي نهر، مطبعة الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٧٩.
٣٧. مع شعراء الأندلس والمتنبي، سير ودراسات: إميليو غرسيه غومس، نقله إلى العربية: د. الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٧٨.
٣٨. مفهوم التاريخ، الألفاظ والمذاهب: عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٤، ٢٠٠٥.
٣٩. المقامة النخلية أو ما سميت بـ(الإكليل في تفضيل النخيل): أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي المالقي، نشرها جوزيف مولر في كتابه (نخب في تاريخ عرب الغرب) .
٤٠. منهج البحث التاريخي: د. حسن عثمان، دار المعارف، القاهرة، ط٨، (د.ت) .
٤١. نثير فرائد الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان: أبو الوليد إسماعيل ين الأحمر، تحقيق: د. محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٧.
٤٢. نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب: أحمد بن المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٥، ٢٠٠٨.
٤٣. النقد التاريخي، يشمل المدخل إلى الدراسات التاريخية، نقد النص، التاريخ العام: انجلو أوسينويوس، بول ماكس، أمانويل كنت، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٤، ١٩٨١.